أسمـاء بغداد وأوصافها وأخلاق أهلها
والشعر الذي قيل فيها
كما ذكرها مؤرخون عراقيون من القرن التاسع عشر

أ.د. محمد حسن علي مجيد الحلي
الجامعة الأسلامية/ النجف الأشرف

الخلاصة :

طالما استقطبت بغداد أنظار العالم . ومنهم السياسيون والمفكرون والمؤلفون والعلماء والفنانون . وألفوا فيها المصنفات الواسعة ، منذ تأسيسها في منتصف القرن الثاني للهجرة حتى الوقت الحاضر ، وقد كتبوا فيها الكتب ونظموا فيها الشعر ، ونسجوا عنها الحكايات والقصص ووضعوا عنها الأساطير عبر أيامها ولياليها ، وما ألف ليلة وليلة الاّ واحدةً من مستلات تلك القصص والحكايات عن بغـداد . ولم يكن ذلك كله من غير سبب وجيه ؛ لان بغداد بعظمتها وهيبتهـا ومركزهـا العلمـي والثقـافي والحضاري والتجاري ، ومكانتها الجغرافية والعسكرية والاستراتيجية كانـت معقـد آمـال العـرب والمسلمين وقبلة أنظارهم في كل زمان ومكان ، حتى كانت رؤية بغداد والإطلاع على معالِمها مَطمحُ آمال الدنيا ؛ لأنه – بعد ألف ليلة وليلة – كثيراً ما ترددت الأقوال في أوصافها ومَدحها والإعجاب بها ، ومنها القولُ المشهور فيها : " من لم يرَ بغداد لم يرَ الدنيا " ، ومثلما قال فيها مؤرخ آخر : ((مدحُها فرضٌ لانها جنة الارضْ)) ، وقال فيها الزَجّاج : " بغدادُ حاضرة الدنيا ، وما سواها من البلاد بادية " ، لذا كان العلماء والفقهاء والشعراء من جهة ، والتجار والباحثين عن الثروة والعمل من جهة اخرى ، يشدون الرحال اليها جميعاً ؛ ليستقروا فيها او ليتزودوا منها بالعلم والثقافة او يعودوا الـى أوطـانهم مُجازين في التدريس او الفقه او الإفتاء ، او محمّلين بالاموال والارباح والبضاعة ... حتـى بلغـت مكانتها حداً لم تستطع معه حاضرة عربية أو إسلامية منافستها ، تستوي في ذلك : البصرة والكوفـة وسامراء ، ودمشقُ والقاهرة ، وقرطبة وغرناطة .

أسماء بغداد :

كُتبَ الكثير عن بغداد بما لا يمكن إحصاؤه من عراقيين وعرب ومسلمين وأجانـب ، قـدماء ومحدثين ، نذكر منهم على سبيل المثال من القدماء : الخطيب البغدادي في كتابه المعروف : (تاريخ بغداد) ، وياسين العمري في كتابه : (غاية المَرام في محاسِن بغداد دار السلام) ، ومن المُحدَثين : العلامة محمود شكري الآلوسي في كتابه : (أخبار بغداد وما جاورها من البلاد) ومحمد كرد علـي في كتابه : (الاسلام والحضارة العربية) وطه الراوي في كتابه : (بغداد مدينة السلام) ومن العلماء المعاصرين : الدكتور ناجي معروف ، والدكتور مصطفى جَواد والدكتور أحمد سوسة والأستاذ محمد طاهر مكية ، والاستاذ شاكر حسن في كتابه المعنون : (بغداد) ، والدكتور طاهر مظفر العميد فـي كتابه : (مدينة المنصور المدورة) وغيرهم كثير ... هذا فضلاً عن الكتب التي تحدثت عن (الأدب والشعر في بغداد) ... وطبيعي أننا لا نستطيع أن نُلم بكل ما ذكره هؤلاء جميعاً عنها وعن الشـعر الذي قيل فيها ، ولكننا وللإيجاز نورد أقوال بعض مؤرخي العراق في القرن التاسع عشر ، عن بغداد وأهلها والشعر الذي قيل فيها ، وفي مقدمتهم المؤرخ العراقي الشيخ عباس بن جواد بن رجب البغدادي ، الذي عاش في بغداد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، وما ذكره في كتابه المخطوط : ((نيل المراد في أحوال العراق وبغداد)) ، فاستل منه بعض ما جاء مـن أسـماء بغداد وأوصافها وبعض الشعر الذي قيل فيها في عصره ، وهذا الكتاب هو من مخطوطـات مكتبـة

المتحف العراقي ببغداد تحت رقم ٩٠٩٣ ، وقد جاء (في الورقة ٢٠٧) وما بعدها من هذه المخطوطة عن أسماء بغداد وأوصافها ما موجزه :

قال : ومن أسماء بغداد (الزوراء) ، لازورار قبلتها ، اي لانحرافها ، وقيل أن المنصور لما بناها جَعلَ أبوابها الداخلة مُزوّرة أي : مُنحرفة عن أبوابها الخارجة ... ومن أسمائها : (دار السلام) وقيل في سبب تسميتها بذلك أن السلام هو إسم لدجلة... ويُقال أن بغداد أصلُها (بك دار) اي : دارُ العدالة ، أو : (دار الرب) لأن (بك) بالتركية معناها (الرب) أو (العدل) ... وهي مدينة عظيمة ، تُذكرَ وتُؤنَث ، وكانت من القرى القديمة ، اختارها أبو جعفر المنصور ، وبنى فيها مدينة ، فكانت أم الدنيا ، وسيدة البلاد ومدينة للسلام ، حتى قيل : " بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد " ، هؤاؤها أنقى هواء ، وماؤها أعذب ماء ، وتربتها أطيبُ تربة ...

أوصاف بغداد والشعر الذي قيل فيها :

قال المؤرخ ابن رجب البغدادي: ومن أوصافها في الشعر ، قال الشعراء فيها [ورقة :٢٢١] :

طِيبُ الهواء ببغداد يُشوقني قُرباً اليها وإن عاقتْ مقاديرُ
وكيف أرحلُ عنها اليوم اذا جَمَعتْ طِيبَ الهوائين ممدودُ ومقصورُ

وقال آخر متحسِراً على فراقها مُضطراً (ورقة٢٢٥) :

سلامُ على بغداد في كل موطنٍ وحقَّ لها مني السلامُ المضاعفُ
فو الله ما فارقتُها على قلىً لها وانّي بشطي جانبيها لعارفُ
ولكنها ضاقت عليّ برحبها ولم تكن الأقدار فيها تساعفُ
وكانت كخلٍ كنت اهوى دنوَّه وأخلاقه تنأى به وتخالفُ

وقال آخر متشوقاً لبغداد : (ورقة٢٢٩)

آهاً على بغدادها وعراقها وظبائها والسحر في أحداقِها
وحِجالها عند الفرات بأوجه تبدو أهلتها على أطواقها
متبخراتٍ في النعيم كأنها خلقُ الهوى العذري من أخلاقها
نفسي الفداء لها فأيَّ محاسنٍ في الدهر تشرق سنا إشراقها

وقال شاعر آخر متلهفاً على بغداد بعد فراقها (ورقة: ٢٣١)

لهفي على بغداد من بلدة كانتْ من الأسقام لي جنة
كأنني عند فراقي لها آدم لما فارق الجنة

ويعود الشيخ ابن رجب البغدادي الى وصف بغداد في كتابه المذكور (نيل المراد ، ورقة :٢٤٢). قائلاً :

وقال مؤرخ آخر في بغداد : (والزوراء) من أسماء الجانب الشرقي من بغداد ، بخلاف (بغداد) فانه إسم لبغداد كلها من الجانبين . وقد ذكروا أن المنصور عندما بناها جعل عليها سُوراً يُشبه الهلال ، وهي المدينة التي في الجانب الشرقي ، والجانب الغربي هو الذي عُمر أولاً ... قيل لرجل : كيف رأيت بغداد ، قال : " الأرض كلها بادية وبغداد حاضرتها " .

وفي وصفها (الورقة :٢٤٥) قال ابن جبير : " هواء بغداد ينبت السرور في النفس ، ويبعث الإنبساط والأُنس ، فلا تكاد تجد فيها إلاّ جذلان فرحاً ، ومستبشراً طرباً، وإن كان نازح ديار مغترباً ".

وقال الخطيب البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد) : " لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرِها وفخامة أمرها ، وكثرة علمائها وأعلامها في تميز خواصها وعوامها ، وعِظم أقطارها وكثرة دورها ومنازلها وشوارعها ومحالها وأسواقها ومساجدها وحمّاماتها وخاناتها وطِيب هوائها وعذوبة مائِها وبَرد ظِلالها ، واعتدال صيفها وخريفها وشتائها ".

"وقال مؤرخ آخر – في وصف بغداد –: " ان ارض بغداد كانت قبل أن تحتمي بحمى الاسلام متنزهاً لملوك بابل ، لاعتدال هوائها وعذوبة مائها ، وكثرة بساتينها ... وكان فيها بعد ذلك أسواق كبار يقصدها التجار من كل الاقطار ، وانها بلغتْ غايتها أيام الرشيد والمأمون ، ولم تزل بغداد تأخذ بالترقي حتى طار صيتها في البلاد ، واتصل بعدها عمران جانبها الغربي من نحو (الشريعة) وعِمران جانبها الشرقي من موضع مشهد الإمام أحمد بن حنبل الى النهر المعروف بـ (ديالة) ... وبلغت محلات بغداد من جانبها الشرقي في العصر العثماني أيام السلطان محمد رشاد أربع عشرة محلة ، ومحلات الجانب الغربي إحدى عشرة محلةٍ ، اما مساجدها فقد بلغت عدداً كثيراً يؤيد ذكرها جميعاً ، الى السآمة " .

لكن الشاعر عبد الغفار الاخرس نقل في (مجموعته الشعرية) عن المؤرخ العراقي الشاعر الثائر مفتي بغداد العلاّمة السيد (عبد الغني جميل) ، انه قال في وصف حال بغداد وحالهِ عقب انتفاضة البغداديين على الوالي علي رضا باشا سنة ١٨٣٤م ؛ بسبب تعسف شرطة الوالي وابتزازهم للناس وكثرة مظالمهم عليهم ، وكان العلاّمة المفتي قد تزعَم تلك الانتفاضة ، إلا أنها فشلت بعد أن حشدَ الوالي كل قواته لقمعها ، فاضطر للهجرة الى الشام والإقامة فيها . (مجموعة عبد الغفار الاخرس . نشرها عباس العزاوي المحامي ، طبع شركة الطباعة – بغداد ١٩٤٩) . وقال (ص٢٧) : " ولقد رأيتُ بغداد ، وهي إذ ذاك مَرابض الأُسود ومَراتِع الغِزلان ، ومَباني المَجد ، ونقدة الرجال ، وكان يُشار إليها بالأنامل ، فكيف وقد تنكرت أعلامُها ، وتبدلت أعيانُها ، حتى لم يَطب لي العيش فيها"

ثم قال في وصف بغداد مُقارناً بين ماضيها وحاضرها ، في رسالة شعرية بعث بها الى صديقه العلاّمة محمود شهاب الدين أبي الثناء الآلوسي ، يقول :

لهفي على بغدادَ من بلدةٍ قد عشعش العزُ بها ثم طار
كانت عروساً مثل شمس الضحى لمستعيرُ حليها لا يُعار
كان بها للنفس ما تشتهي كجنة الخُلد ودار القرار
كانت لآساد الوغى منزلاً والخائف الجاني بها يُستجارُ
واليوم ، لا مأوى لذي فاقةٍ فيها ، ولا في أهلها مُستجارُ
حلَّ بها قوم وهم في عمى ما مَيزوا أشرارها والخِيارُ
بارت بها أسنى تجاراتها وهكذا عادة دار البَوارُ
قد نعِق البُوم على جُدرها يصيح بالناس : البوار البوارُ
والكرخ قد اقفر من أهله من بعد ما كانوا كوَرد البُهارُ
والكل فيها قادِح زَندهُ وأولُ الإحراق يبدو الشَرارُ
لا يشتفي غيظ أخي نخوة إلاّ إذا جرَد بيض الشِفارُ
أيا شهاب الدين ياسيدي قد هجمَ النذلُ علينا وغارُ
بغداد كم أضنى عليها الذي من أسره لا يُستطاع الفرارُ

(مجموعة عبد الغفار الأخرس ص١٢٢-١٢٥) ، والقصيدة موثقة في كتاب العلامة أبي الثناء الآلوسي (غرائب الإغتراب) ص٢١١-٢١٣ ، مطبعة الشابندر ، بغداد ١٣٢٧هـ .

وفي رسالة شكوى شِعرية أخرى يُبدي حزنهُ ويُظهر بَرمهُ مما آلَ اليه حال بغداد وحاله ، بعد أن سطا عليها الفساد والمنافقون (في النصف الأول من القرن التاسع عشر) بعثَ بها ايضاً الى صديقه العلامة أبي الثناء الآلوسي ، وهي طويلة نجتزىء منها قوله :

علامَ الإقامة في بلدةٍ تعدُ بها مثل خمر النعم

فهـــلا رحلنـــا الـــى غيرهـــا لنَحظـــى بعـــزو عيـــشٍ أتـــم
اذا بلـــدة أنكـــرت أهلـــها فدعْهـــا . فمرجعُهـــا للعَـــدم
فَصبـــراً فـــان الليالـــي تحُـــول ويرجـــع للخَطـــب مـــن قـــد ظلـــم
وقـــد تنجلـــي ظُلَـــم الحادثـــات اذا مـــا ظـــلامُ الحادثـــات ادلْهَـــم
فقـــد خصـــصَ الله دار الســـلام بلطـــفِ الغِنـــى اذا الخَطـــبُ عَـــم
فـــلا تحـــزننَ لأمـــرٍ عُســـراً ولا تيأســـنَ لخَطـــبٍ هَجَـــم
فايـــن سُـــراة بنـــي هاشـــم ومَـــن لعِظـــام الأعـــادي هَشـــم
فقومـــوا بنـــا ننَـــدب الظاعنيـــن ونُرثـــي لمـــن حـــلّ فـــي (ذي سَـــلَم)
فـــان الحَـــزين يُواســـي الحـــزين ويبكـــي السقيـــم علـــى ذي السـقم
ســـأبقى قـــذى فـــي عيـــون اللئـــام وبـــاعي طويـــل وأنفـــي أشـــم
أمـــيم ، دَعينـــي أجـــوبُ الفـــلاة فـــاني – وعينيـــك – عـــالي الهمَـــم

(مجموعة عبد الغفار الاخرس . ص٢٧-٢٩)

أخلاق أهل بغداد :

وأخيراً نعود مرة أخرى الى المؤرخ (ابن رجب البغدادي) وكتابه : " نيل المراد " ، وهـو يتحدث هذه المَرة عن أخلاق أهل بغداد ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلـع القـرن العشرين ، قال : " أما أخلاق البغداديين ... فانهم يُعظمون الكبير ، ويَرحمون الصـغير ، ويـأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر ، ويرعَون الجار ويحفظون الذمار ، وكان من أخلاقهم : أنهم يَحملون السيف ويُكرمون الضيف ، ويُفشون السلام ، ويُطعمون الطعام ويأوون الغريب وَيشفِقون على القريب ، ويُكثرون من صُحبة العلماء ويترنحون لذكر الكرماء ويعـودون المرضـى ويشـيعون الجنـائز ، ويُبالغون في إعطاء الجوائز ... ومنها أنهم يأنفون من عِشرة من لا يؤمِن بيوم الحِساب ، ومنها أنهم يُقرضُون المُحتاج ، ويصبرون على المُعسر ، ويتعوذون من العقوق ، ويبادرون لإيفـاء الحقـوق ، ويواسون البائِس العَديم ويرعَون الأرملة واليتيم ، ويؤدون الأمانات الى أهلها ويعدِلون فـي القضـايا وفصلها ... الظالمُ عندهم مخذول ولو كان من الأصول ، والمظلوم عندهم مَحمول ولـو كـان مـن الفروع ، وكلهم أماجدُ أكارم، يتحرون أكل الحَلال ولو في رُؤوس الجِبال ، ويهربـون مـن الحـرام مَسيرة عام . لا يشقون عصا المسلمين ولا يركنون الى الظالمين ... ومنها : أنهم يُحـافظون علـى العِبادات ، ويَبغضون من يجترم السيئات ... لباسُهم التقوى ، وفاكهتهم الشهامة ... يَعرضـون عـن الملاهي والملاعِب ، ويتوسعون في اللطائف والمكالمة والطرائف ، يتواضعون للمتواضع ... أما الآن ، فقد ثبت بالسماع والعَيان أنهم أعدلُ الناس سيرةً ، وأسلمُهُم سَريرةً ، ومـا ذاك إلاّ أن يكـون إنـاء العطر ، اذا نفذت غاليتُه بقيت رائحته ، وجَودة الأصلُ تنتج من حُسن الفِعل ... " .

مجلة القادسية للعلوم الانسانية
مجلة علمية فصلية مُحكّمة
تصدر أربع مرات في السنة
تعنى بنشر البحوث الانسانية كافة